

منظور الفكر الإسلامي في تحليل العلاقات الدولية*

هبة رؤوف عزت**

شهدت القاهرة ندوة هامة على مدار ثلاثة أيام ناقشت أبحاث ونتائج مشروع بحثي دام ١٠ سنوات كاملة وشارك فيه ٢٨ باحثاً وأستاذاً حول "العلاقات الدولية في الإسلام" وصدر هذا الجهد الضخم منذ أشهر في ١٢ مجلداً يرصد العلاقات الدولية من المنظور الإسلامي على مستويات ثلاثة: الأصول والتاريخ، والفكر، وقدم له بمقدمة منهجية في أول مجلد، وكذا بجزء عن المدخل القيمي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام، وما زال هناك تكملة للجزء الخاص بالفكر قيد البحث يتم الانتهاء منها قريباً. وكان البحث قد رعاه عبر هذه السنوات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، وأشرفت عليه د. نادية مصطفى أستاذة العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.

في القاهرة تعاون مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة مع جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بفرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية وعقدنا ندوة على مدى ثلاثة أيام حضرها أساتذة من مصر ولبنان والولايات المتحدة الأمريكية في مجالات تخصصية شتى أبرزها العلوم السياسية والفقه والتاريخ والشريعة وناقشوا بشكل نقدي ملخصات عرضها الباحثون لمجلدات المشروع المتنوعة، كما أقيمت في كل يوم محاضرة مسائية حول إحدى القضايا المرتبطة بالموضوع ألقاها أساتذة زائرون.

* ندوة "منظور الفكر الإسلامي في تحليل العلاقات الدولية" القاهرة: ١١/٣٠ - ١٢/٢ - ١٩٩٧.
** الأستاذ المساعد بكلية الاقتصاد، جامعة القاهرة.

الإسلام والواقع الدولي:

أكدت أ.د. نازلي معوض رئيس مركز البحوث السياسية بجامعة القاهرة في الجلسة الافتتاحية أن أهمية هذا المؤتمر نابعة من حجم وثقل العمل البحثي الممتد الذي تناقش به الجلسات المختلفة، وهو أيضاً يأتي في لحظة تاريخية هامة يتساءل فيها المسلمون حول إسهاماتهم في نهضة وتطور العلوم تاريخياً وحاضراً، كما يواجه الإسلام تحديات دولية في مرحلة ما بعد القطبية تستلزم يقظة فكرية وعلمية تدرك الذات وجذورها ومسيرتها، وآفاق مستقبلها كذلك.

أكد أ.د. علي الدين هلال عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة على أهمية تقديم منظور إسلامي في مجال العلوم السياسية يتواصل ويضيف إلى التيار العام للعلم في العالم ولا ينعزل ليتحول إلى أيديولوجية مكتفية بذاتها فيخرج عن وظيفته ودوره.

وفي كلمته أشاد د. طه جابر العلواني مدير جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فريجينا بأهمية بناء نظرية إسلامية للمعرفة تنبثق عنها علوم مختلفة يسهم بها المسلمون في التيار العالمي الصاعد حول جهود مراجعة النظرية الوضعية والذي يشهد تنامياً في العالم أجمع، كما نوه بالجهود الذي بذله الباحثون عبر السنوات الطوال بدأب وصبر وروح جماعية يفتقدها العلم البحثي في العالم العربي والإسلامي، وأن هذه المشروعات البحثية التي تجمع أهل التخصصات المختلفة داخل العلوم الاجتماعية والإنسانية ثم تربطهم بالعلوم الشرعية، هي التي تحدث نقلة نوعية في تطور المناهج بل تطور العلوم ذاتها ومجالات بحثها وموضوعاتها.

المدخل المنهاجية والاشكاليات

في الجلسة الأولى قدمت أ.د. نادية مصطفى المنسق العام للمشروع ورقة حول الإطار العام للمشروع وموضوع الندوة، وأكدت أن دراسة العلاقات الدولية في الأكاديميات الغربية اهتمت بفلسفة هذه العلاقات، والأفكار السياسية الكبرى في الحضارة الغربية وأنساقها القيمية، وأن هذه هي البنية التحتية للعلم التي قامت عليها مناهجه وأدواته، وأنه - دون إنكار - لأهم هذه الجهود عبر ما يقرب من قرن في بلورة علم علاقات دولية مستقل عن التاريخ والفلسفة والقانون، وهي العلوم التي ولدت من أرحامها دراسة ظاهرة العلاقات الدولية، وكذا دون إنكار أو تجاهل لما يسمى التحليل

حيث ناقش عملية تأصيل القيم ومفرداتها وعناصرها، ثم المرحلة التالية في المشروع وهي تفعيل هذه القيم من خلال القراءة الجامعة لأصول الفقه الحضاري وضوابط الفهم والتنزيل، وأخيراً نماذج التشغيل في العلاقة بين الدعوة والاتصال وتصنيف العالم وتقديم البناء المفاهيمي، ثم استثمار قواعد تحليل النصوص كأداة منهجية في هذا السياق. وأكد د. سيف على أهمية دراسة النماذج التاريخية ودراسة التاريخ السياسي للعلاقات الدولية، وكذا النماذج المعاصرة في تقويم عوالم الأحداث والأفكار المتعلقة به ضمن سياقات متعددة، وأيضاً الاهتمام بالدراسات المستقبلية وأصول التفكير السني، مؤكداً أن كل هذه النماذج يحتاجها الباحث لتتكامل أمامه وتتداخل وتوظف لتكون مقدمة لدراسة واقتراح أجنحة بحثية ممتدة تحاول أن تجعل المشروع رغم حجمه مجرد حلقة بحثية تستدعي حلقات أخرى لتفعيله، تؤدي إلى فهم أدق وأشمل وأكثر تركيباً وأثرى إسهاماً من باحثين آخرين للعلاقات الدولية.

الأساس الشرعي والمبادئ الحاكمة

في الجلسة الثالثة كان هذا هو عنوان ورقة أ.د. عبد الويس شتا الذي تساءل فيها عن حقيقة الأحكام التي حوتها الأصول الشرعية الإسلامية بشأن الأساس الذي يعد منطلقاً لعلاقات الدول الإسلامية مع غيرها من الدول والكيانات الدولية، وما هي المبادئ التي تمثل إطاراً عاماً يحكم هذه العلاقات ويقوم مسارها، وحاولت ورقته أن تقدم إجابة عن هذه الأسئلة واعتمدت في ذلك على منهجية للنظر في الأصول الإسلامية من خلال تفاسير القرآن وشروح السنة مع الاستئناس بما تضمنته كتابات الفقهاء وعلماء السير والتاريخ وكبار المفكرين من مذاهب وآراء حول أصل العلاقة، هل هو السلم أو العداة أم الحياد والعزلة؟ وقد ذهب إلى أن أصل الدعوة هو أساس العلاقة وأن أدوات الدعوة تختلف باختلاف البيئة الدولية وموقف الأطراف الأخرى من الكيان الإسلامي، مع بقاء مبادئ حاكمة ثابتة كوحدة الإنسانية والمساواة والعدل وكفالة الحريات والوفاء بالعهد.

وفي الجلسة الرابعة قدم د. مصطفى منجود أستاذ الفكر السياسي الإسلامي ورقة حول المداخل المنهجية لدراسة أصول العلاقات الدولية في القرآن والسنة والفقه والتاريخ في عصر النبوة والخلافة الراشدة، فاستعرض منهجية التعامل مع النص القرآني والحديث النبوي وأبرزها التعارض والترجيح مثل آية سيف في مقابل آيات السلم، ثم التعامل مع الأحاديث النبوية القولية والفعلية، وضوابط التعامل مع خبرة الخلافة الراشدة.

ظهور دار الحرب وزوالها:

كان عنوان محاضرة د. رضوان السيد (لبنان) في الأمسية الأولى هو "ظهور دار الحرب وزوالها: دراسة في الاجتهاد السياسي والفقه" حيث حاول أن يتتبع ويرصد في كتابات القرنين الأول والثاني الهجري رؤية الفقهاء والعلماء، مؤكداً أن تقسيم "دار الحرب ودار الإسلام" التقليدي لم يكن مسلماً به لدى جمهور الفقهاء حتى أواخر القرن الثاني الهجري، بل كان هناك مجموعة من الفقهاء المكيين والمدنيين ما كانت ترى فرضية الجهاد بل كانت تقدم عليه العبادة ثم بدأ ظهور اتجاهات تؤيد الحرب الهجومية. وفي اقتراب هو أقرب لعلم الاجتماع منه للفقه يحاول د. رضوان السيد أن يفسر لماذا برزت هذه التيارات في ظل ظروف سياسية وعسكرية معينة، ويمر بشكل إجمالي على القرون المختلفة قوة وضعفاً للدولة (الدول) الإسلامية وحتى سقوط الخلافة، وبرز إشكاليات العلاقة مع الغرب في ظل ضعف المسلمين، وهي محاضرة أثارت جدلاً واسعاً بين الحضور ولقيت تعليقات قوية رصينة ونقدية من الباحثين.

التاريخ الإسلامي:

في اليوم الثاني انتقل النقاش إلى التاريخ الإسلامي، فقدمت أ.د. نادية مصطفى ورقة في أولى جلساته حول "مدخل منهجي لدراسة التطور في وضع ودور العالم الإسلامي في النظام الدولي وخبرة التعامل مع التاريخ الإسلامي باقتراب سياسي لا يغرق في الأحداث وقضايا "التاريخ" بل يسعى لرصد أنماط العلاقات بين "دول الإسلام" داخل التجمّع الإسلامي، ثم بين دار الإسلام ودار الحرب، وأثر علاقات الفواعل الدولية الأخرى على علاقتها بدار الإسلام.

وتناولت الأوراق التي لخصت ٦ أجزاء كاملة العلاقات الدولية في العصور الإسلامية المتتالية، سواء الخارجية أم بين الممالك والدول الإسلامية، فقدمت أ.د. علا أبو زيد خيرة العصر الأموي، وخبرة العصر العباسي: من التخلي عن سياسة الفتح حتى السقوط" وقدمت أ.د. نادية مصطفى دراستها حول خيرة العصر المملوكي: "من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية" وبعدها: "خيرة العصر العثماني: من القوة والهيمنة إلى المسألة الشرقية" وفي الجلسة الأخيرة لليوم الثاني تناولت أ.د. ودودة بدران "وضع الدولة الإسلامية في النظام الدولي في أعقاب سقوط الخلافة" ثم استعرضت في الختام "خلاصة دراسة التطور في وضع ودور العالم

الإسلامي في النظام الدولي " وهي كلها دراسات تاريخية تمت بالاقتراب من التاريخ السياسي والتحليل السياسي مما أكسبها بعداً جديداً يسعى للتجريد واستكشاف أنماط التفاعل واستخلاصها وتحليلها عبر الفترات الزمنية المختلفة والمقارنة بينها.

وفي المساء كانت محاضرة اليوم الثاني للدكتور وجيه كوثراني أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة اللبنانية الذي اختار لها عنوان: "مسألة الخلافة في الصراع الدولي في مطلع القرن العشرين" ورصد من خلال دراسة الوثائق الفرنسية التاريخية لوزارة المستعمرات الفرنسية وكذا وثائق وزارة الخارجية البريطانية كيف سعت الدولتان لاستغلال فكرة الخلافة كفكرة محورية في الفكر والثقافة السياسية للمسلمين في تحقيق أغراضهما الاستعمارية بالسعي لاسقاط الخلافة الإسلامية في الأناضول وتأسيس خلافة موالية لا تعارض سياستهما في مناطق مختلفة أخرى ورشح لهذا الدور مصر والحجاز وحتى الهند، وبين كيف فشلت هذه المساعي، وكيف توازى هذا مع مراجعة فكرة الخلافة وتصورها وبروزها في الفكر الإصلاحى والإحيائي الإسلامى الحديث في النصف الأول من القرن.

الدولة . السلام . الحرب

في اليوم الثالث قدم د. مصطفى منجود ورقته حول "الدولة" كوحدة للتعامل الخارجى في الإسلام، حيث بين اهتمام الباحثين في فروع السياسة والتاريخ والفلسفة والشريعة بالدولة كفاعل وكيان، وأن هذا الاهتمام المشترك مرده أن الدولة هي التنظيم السياسي الأسمى في المجتمع السياسي والمعبّر عن مصالحه وأهدافه والضابط لعلاقاته وتفاعلاته داخليا وخارجيا، بل يتشارك في دراستها كل أفرع العلوم السياسية من نظم وفكر ونظرية وعلاقات دولية وقانون دولي، وقد سعى في ورقته لتأصيل مفهوم الدولة ودورها في صدر الإسلام في عصري النبوة والخلافة من نواح عدة أبرزها: دلالات المفهوم، علاقته بمفاهيم الأمة والاستخلاف والشهادة، وتطور الحركة السياسية الخارجية للدولة الإسلامية بل والفاعل السياسي والعلاقة الخارجية في مرحلة ما قبل تأسيس الدولة تهيئة لهذا التأسيس وتوجهاً إليه، وقضايا الشرعية وحدود السلطة في ممارسة الدولة لمهامها الخارجية، وفي الجلسة الثانية قدم د. عبد الويس شتا ورقة حول الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم في حين كان موضوع ورقة د. عبد العزيز صقر في الجلسة الثالثة هو الوجه الآخر للصورة وهو أصول هذه العلاقات وقت الحرب والقتال.

وفي الجلسة الأخيرة قدم د. سيف الدين عبد الفتاح تقريراً بأبرز توجهات النقاش في المؤتمر وتلخيصاً جامعاً لأهم القضايا التي أثيرت.

التقويم والنقد

شهدت الحلقة النقاشية التي عقدت بعد نهاية عروض الأبحاث ومناقشتها وتقويمها، اختلافاً في وجهات النظر بشأن المشروع وأجزائه المختلفة، وشارك فيها أ.د. رضوان السيد، والأستاذ. السيد ياسين من مركز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، وأ.د. علي الدين هلال عميد كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة، وأ.د. عبد الملك عودة الأستاذ المتفرغ بكلية الاقتصاد. وفي حين أننى الدكتور رضوان السيد على الجهد البحثي ودعا إلى استكمال برؤية نقدية للتراث الفقهي والسياسي ومحاولة البناء عليه في اجتهاد علمي معاصر بشأن قضايا شائكة في العلاقات الدولية للدول الإسلامية أكد د. عبد الملك عودة على أهمية تشجيع الباحثين على التصدي لمثل هذا الجهد الموسوعي واستكمال نواقصه وتعميق وإثراء جوانبه بدراسات تراكمية أخرى، كما دعا أ.د. علي الدين هلال إلى تواصل جهود الباحثين الإسلاميين مع المجتمع الأكاديمي الأوسع والانفتاح على التيارات الفكرية والنظرية المتنوعة والسعي إلى المشاركة في التغيرات النوعية التي تشهدها العلوم الاجتماعية في الاقتراحات والمناهج. وجاء النقد (النقض) الحاد في الحلقة النقاشية من الأستاذ السيد ياسين الذي هاجم المشروع ورأى أنه هروب من المنهاجية إلى التاريخ وأن الجهد لم يثمر أي نتائج جديدة تقدم نظرية للعلاقات الدولية، ناهيك عن احتوائه على نظرة أصولية تعود لآراء واجتهادات فقهية تاريخية رأى أنها منحللة ولا يجب ذكرها، خاصة تلك المرتبطة بالموقف من غير المسلمين. ولا شك أن هذا القول مجافٍ للحقيقة وفيه من التحامل على الإسلام والمسلمين ما فيه.

وقد ردت أ.د. نادية مصطفى في كلمة موجزة على النقد الحاد مؤكدة أن المشروع لم يجس نفسه في التاريخ بل حرص في مراحل وأجزائه المختلفة على الضوابط المنهاجية، وتأسيس رؤية نظرية، وتجريد أنماط تاريخية، وأنه وظف الأصول الشرعية والاجتهادات الفقهية ولم يقف عندها أو يجس نفسه فيها، وأنه تجاوز الجهود المبكرة لما كان يطلق عليه "إسلامية المعرفة" بشكل بعيد ويسعى للإسهام في مسار علم العلاقات الدولية الأوسع والتواصل مع المدارس المختلفة فيه.

كذلك أكدت على أن المجموعة البحثية لديها تفكير ممتد بشأن المشروع، وما زال

هذا الفكر يتم تطويره نحو صياغة نهائية، ويقوم الفريق البحثي بتطوير خطة بحثية بعيدة المدى مفتوحة سيقدمها للجماعة الأكاديمية حيث تمثل نسقاً قابلاً للتعميق والتراكم والإسهام المستمر، فضلاً عن الحرص على تبسيط الأجزاء المختلفة للمشروع وإعادة صياغتها حتى تصلح للتدريس في الجامعات.

العولمة:

وقد اختتمت أعمال الندوة بمحاضرة للدكتور علي مزروعى أستاذ الدراسات الإفريقية والعرقية في جامعة كورنيل جامعة بنهامتون، والأستاذ بجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية التي شاركت في تنظيم الندوة، وتحدث في محاضراته حول العولمة وما تعنيه من توجهات متنازعة للتوحيد والتفتيت في آن واحد، وخطورة الهيمنة الثقافية في ظل قوة ثقافية واحدة، وأكد أهمية دور الإسلام في هذا العالم الجديد والحاجة لتقديمه للعالم - في شتى المجالات - نموذجاً للحياة وقيماً صالحة حتى لمن لا يعتنقون الإسلام، وأن المشروع البحثي الذي تمت مناقشته على مدار أيام ثلاثة هو خطوة على طريق المجال الأكاديمي اللانهائي.